شرح الأربعين النووية

الحديث الثامن والثلاثون

مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّاً

اللقاء الواحد والأربعون

الحديث الثامن والثلاثون:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلِيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلِيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ. ولايَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِيْ بِهَا. وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِيْ لأُعِيْذَنَّهُ) رواه البخاري

"وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ".

ترجمة الراوي:

أَبو هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- سبق الحديث عنه سيرته الطيبة في اللقاءات السابقة.....

منزلة الحديث:

هذا الحديث الشريف يبين مَن هُم أولياء الله وأحباؤه في الدنيا والآخرة؛ ولذلك قيل عنه: إنه أشرف حديث في ذكر الأولياء[الوافي].

قال الشوكاني رحمه الله: حديث ((من عادى لي وليًّا)) قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها، وتدبرها كما ينبغي [قطر الولي على حديث الولي].

قال صاحب الإفصاح الوزير ابن هبيرة رحمه الله: في هذا الحديث من الفقه أن الله تعالى قدم الإعذار إلى كل من عادى وليًّا بأنه محاربه بنفس المعاداة.

شرح الحديث:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ)) المراد هنا بالولي المؤمن؛ قال الله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) [البقرة: 257].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة عن هذا الحديث: "هو أَشْرَفُ حديثٍ رُوِيَ في صِفَة الأولياء".

هنا حديثٌ عن دفاع ملك الملوك جل جلاله وتقدست أسماؤه عن وليّه المؤمن الذي قد يُكاد من أعداءٍ له يتربصون به السوء، هو يمشي على الأرض، لكنه محفوظ من السماء، محفوظ ممن لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، إنه مقام الدفاع عن الأولياء، إنه مقام بيان مكانتهم «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ».

لا بد من الأعداء للأولياء الذين يسيرون في طريق الحق وطريق الاستقامة على هذا الدين... والطريق طويل وشاق... ومحفوف بما تكره النفس كما أخبر النبي – ﷺ– قال: "حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات" رواه مسلم.

لما بُعث النبيُّ محمدٌ –ﷺ–، وجاءه الوحي لأول مرة، وهرعت به خديجة بنت خويلد –رضي الله عنها– إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان نصرانياً يكتب الإنجيل، فلما حَدَّثه رسول الله –ﷺ– بما رأى، قال له ورقة –وكان شيخًا كبيرًا قد عمي–: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى – ﷺ–، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ".

فاستغرب رسول الله – ﷺ– كيف يحدث ذلك؟ وهو محل تقدير أهل مكة، فهو الصادق الأمين عندهم، وهو الشريف بن الأشراف، وله عزّ ومنعة، فكيف يُخرجه قومه؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ–: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟" قَالَ وَرَقَةُ: "نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ".

لما سلك النبي –ﷺ– طريق الإسلام والدعوة إليه أُوذِيَ كل الإيذاء، وطُرد من بلده مكة الحبيبةِ إلى قلبه، شُج رأسه –ﷺ–، وكُسرت رَباعيته، أوذي في عرضه ونفسه، فصبر –ﷺ– وثبت... وقال لأصحابه –رضي الله عنهم– ذات يوم: "إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ" متفق عليه.

ولذلك ثبت الصحابة –رضوان الله عليهم– على ما تركهم عليه رسول الله – ﷺ–، وأوذوا – رضوان الله عليهم– في حياته وبعد موته – ﷺ–.

وهكذا الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ولذلك فإن سالك طريق الحق معرَّض للفتنة في دينه ودنياه، يتسلط عليه شياطين الجن والإنس بالوسوسة لحمله على ترك دينه أو التهاون بالواجبات

الشرعية، كما يتسلط عليه شياطين الإنس الكارهين لما يحمله من دين وخير... يتسلطون عليه بالإيذاء والتشويه.

📝ولذلك ينبغي أن يكون عند المسلمين الوعيُ الكامل بِحِيَل أعداء الدين التي يوظِّفون كثيرًا منها في وسائل الإعلام لتشويه صورة أهل الحق والخير، وما يريدون بتشويههم هذا إلا تشويه ما مع أولئك من الحق والدين.

📝لقد بيَّن هذا الحديثُ منزلةَ أولياءِ الله عنده -تعالى-، وولي الله كما قال ابن حجر: هو العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته. جمع بين الإيمان والتقوى، فجمع الله له البشرى في الدنيا والآخرة، وأذهب عنه الخوف والحزن: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ) [يونس:62-64].

❁آمنوا بقلوبهم، واتقوا بجوارحهم، لا يجدهم حيث نهاهم ولا يفتقدهم حيث أمرهم.

❁لهم البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحَسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وأما البشرى في الآخرة فهي بالجنة والرضوان من المولى عز وجل، والبُشرى لهم عند الموت.

📄قال ابن القيم: فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة.

📝وجاء عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما أنَّ أولياءَ الله هُمُ الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله -تعالى-.

📝وما ذاك إلا لأنَّ ذِكْرَ اللهِ في قُلُوبِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ، وأثره ظاهر على جوارحهم فهم يُذَكِّرون النَّاسَ رَبَّهُمْ؛ فمن رآهم ذكر الله -تعالى-.

📝ما أَعْظَمَ مَنْزِلَةَ أَوْلِياءِ اللهِ -تعالى- حينما يُنْذِرُ اللهُ -تعالى- مَنْ عادَاهُمْ بِالحَرْبِ!! عاداهم بسبب صلاحهم أو عبادتهم أو دعوتهم أو جهادهم، وما أكثر الذين يعادون أولياء الله ويظلمونهم، فويل لهم! كيف يقابلون الله وقد عادَوْا أولياءه؟!

📝قال ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ الله تعالى-: "فقد آذَنْتُهُ بالحرب: فقد أعلمته بأني مُحَارِب له حيث كان محاربًا لي بمعاداة أوليائي"، إلى أن قال: "واعلم أن جميع المعاصي محاربةٌ لله -عز وجل-، قال الحسن: "يا ابن آدم هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله فقد حاربه، وكلما كان الذنبُ أقبح كان أشد محاربة لله، ولهذا سمى الله -تعالى- أكلة الربا، وقطّاع الطريق محاربين لله -تعالى- ورسوله؛ لعظيم ظلمهم لعباده؛ وسعيهم بالفساد في بلاده، وكذلك معاداة أوليائه؛ فإنه -تعالى- يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه" ا.هـ.

وقال الفاكهاني: "في هذا تَهْدِيدٌ شديد؛ لأنَّ من حاربه الله أهلكه، ومن كره من أحب الله خالف الله، ومن خالف الله عانده، ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله" ا.هـ.

فأولياء الله تجب مولاتهم وتحرم معاداتهم، فكل من آذى ولياً لله بقول أو فعل، فإن الله يعلمه بأنه محارب له، وأنه سبحانه هو الذي يتولى الدفاع عنه، وليس للعبد قبل ولا طاقة بمحاربة الله -عزوجل-، قال سبحانه:(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) [المائدة: 55-56].

وهكذا بلغ من علو شأنهم، وسمو قدرهم، أن أعلن ربّ العزّة الحرب على كل من أراد بهم سوءاً، أو ألحق بهم أذى، (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ).

وقال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) [آل عمران:21-22]، وانظر كيف يدافع الله عن أوليائه وأحبائه، وكيف يمدّهم بالنصرة والتأييد، ثم انظر كيف يتوعّد من عاداهم بالحرب ... حينها تعلم أن الله تعالى لا يتخلى عن أوليائه أو يتركهم فريسة لأعدائهم -ولو تأخّر هذا النصر وطالت مدّته- ؛ فهذه النصرة وهذا التأييد إنما هو مرتبط بسنن الله التي لا تتغيّر ولا تتبدّل ، وسنّة الله اقتضتْ أن يمهل الظالمين دون إهمالٍ لهم ، فإن تابوا وأنابوا وزالت عداوتهم للصالحين ، تاب الله عليهم ، وإن أصرّوا على باطلهم ، وتمادوا في غيّهم ، فإنّ الله يملي لهم استدراجاً ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وبذلك ينتصر الله لأوليائه ويجعل العاقبة لهم ، والغلبة على من عاداهم .

يُظْهِر هذا الحديث الفرق العظيم بين الطاعة والمعصية؛ فالطاعة تقرب إلى الله -تعالى- حتى تجعل صاحبها من أوليائه الذين يتولاهم بعنايته ورعايته، ويحفظهم من شياطين الجن والإنس، ويعلن الحرب على من عاداهم من أهل المعاصي والفجور.

وهذا يفسر لنا تردي أحوال الذين يؤذون أولياء الله -تعالى- خاصة في جوانب الدين والأوامر والنواهي؛ فكم من عدو لله -تعالى- آذى أولياءَه بيده أو لسانه أو قلمه، من علماء ودعاةٍ وصالحين، ومع ذلك تراه يتقلب في مَلَذَّات الدنيا، لم يُؤْذَ في نفسه أو ماله أو ولده؛ بل ربما يزيده الله من ذلك؛ لكن لو فتشت عن دينه لوجدت أنه ينحدر من معصية إلى أعظم منها؛ حتى يقترف أنواع الفجور والآثام؛ بل ربما ارتكس في الكُفْر والإلحاد والزَّنْدَقَة، فيكون انتقامُ الله منه لأوليائه الذين آذاهم أن سهل عليه أَمْرَ الكفر والفجور حتى يخلد في العذاب، ويكون حسابه في الآخرة أشد وأنكى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: مَن كان مؤمنًا تقيًّا، كان لله وليًّا، فمن آذى مؤمنًا فقد آذنه الله – أي: أعلمه الله – أنه محارب له، والله تعالى إذا حارب العبد أهلكه، فليحذر الإنسان من التعرض لكل مسلم.

واعلم أن ولاية الله عزّ وجل نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: ولايته على الخلق كلهم تدبيراً وقياماً بشؤونهم، وهذا عام لكل أحد، للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ومنه قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ*ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) [الأنعام:61].

وولاية خاصة: وهي ولاية الله عزّ وجل للمتقين، قال الله عزّ وجل: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [سورة البقرة:257]، فهذه ولاية خاصة وقال الله عزّ وجل: فقال: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [يونس:62– 63].

فإن قال قائل: هل في ثبوت ولاية الله تعالى لشخص أن يكون واسطة بينك وبين الله في الدعاء لك وقضاء حوائجك وما أشبه ذلك؟ فالجواب: لا، فالله تعالى ليس بينه وبين عباده واسطة، وأما الجاهلون المغرورون فيقولون: هؤلاء أولياء الله وهم واسطة بيننا وبين الله. فيتوسلون بهم إلى الله أولاً ثم يدعونهم من دون الله ثانياً.

((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ)) إن التقرب إلى الله تعالى إما أن يكون بالفرائض أو النوافل، وأحبُّها إلى الله عز وجل وأشدها إليه تقربًا الفرائض؛ لأن الأمر بها جازم.

ما تقرب المتقربون بشيء أحب عند الله من فرائضه التي فرضها، ولولا عظمةُ تلك الفرائض لما جعل العباد يتعبدونه بها، يقول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: "أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والوَرَعُ عمَّا حَرَّمَ الله، وصدق النية عند الله –عز وجل–".

وهذه الدرجة هي درجة المقتصدين أصحاب اليمين.

((ولايَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)) ويكون الحب بالاجتهاد في نوافل الطاعات؛ من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وكف النفس عن دقائق المكروهات بالورع؛ وذلك يوجب للعبد محبة الله، ومن أحبه الله رزقه طاعته، والاشتغال بذكره وعبادته، و((لا يزال)) يدل على الاستمرار، يعني: ويستمر عبدي يتقرب إلي بالنوافل.

هؤلاء السابقون المقرَّبُون: فإنهم تقرَّبُوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بِالوَرَعِ؛ وذلك يوجب للعبد محبة الله؛ كما قال: "ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أُحِبَّه"؛ فمن أحبه الله رزقه محبته وطاعته، والاشتغال بذكره وخدمته؛ فأوجب له ذلك القرب منه، والزُّلْفَى لديه، والحظوة عنده.

"وَلايَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ"

وهكذا ينتقل المؤمن من منزلة القرب، إلى رتبة ومنزلة هي أعلى من ذلك وأسمى ، وهي منزلة الحب، وينالها بعد التودد إلى الله تعالى بالنوافل، والاجتهاد في الطاعات، فيُقبل على ربّه مرتادا لميادين الخير، يشرب من معينها ، ويأكل من ثمارها، حتى يصل إلى مرتبة الإحسان، والتي وصفها رسول الله –ﷺ– كما في البخاري بقوله: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وحال المؤمن عند هذه الدرجة عجيب، إذ يمتلئ قلبه محبة لربه وشوقا للقائه ، وخوفا من غضبه وعقابه ، ومهابة وإجلالا لعظمته ، فما بالك بعبد يقف بين يدي ربه وكأنه يراه رأي العين ، فلا تعجب من اليقين الذي يبلغه ، والسمو الإيماني الذي يصل إليه .

هكذا نفهم تفاوت العباد في وَلاية الله، فالوَلاية متفاوتة بحسب إيمان العبد وتقواه، فكل مؤمن له نصيب من وَلاية الله ومحبته وقربه، فأعلى درجات الوَلاية هو السابق بالخيرات الذي يأتي بالنوافل مع الفرائض، ويبلغ بالعبادات القلبية لله عز وجل مبالغ عالية، ثم المقتصد وهو المؤمن الذي يحافظ على أوامر الله، ويجتنب معاصيه، ولكنه لا يجتهد في أداء النوافل، ثم الظالم لنفسه وهو المؤمن العاصي فهذا له من الوَلاية بقدر إيمانه وأعماله الصالحة، قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) [فاطر :32].

قَال ابْنُ تَيْمِيَّةَ أنها تكون لكل مؤمن بقدر ما معه من الايمان والتقوى: فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مِنْ أَهْل الْإِيمَانِ مَعَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاه.

كلما زاد الايمان وتقوى الله، زادت له الولاية والتأييد والنصر والهداية من الله، فالسابق بالخيرات له من الولاية ما يفوق المقتصد والظالم للنفسه، فالولاية تزيد بزيادة الايمان والتقوى، وتنقص بنقصان الايمان والتقوى.

من يريد أعلى درجات الولاية، عليه بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وترك المباحات التي تشغل عن طاعة الله ورضاه.

ويبيّنُ هذا الحديث بجلاء خطأ من يهمل الفرائض ويجتهدُ في النوافل، تجده يحافظ على قيام الليل في رمضان، ويتنفل بالحج والعمرة؛ لكنه يهمل الصلوات المفروضة بقية العام؛ ربما يتصدق على الفقير والمسكين، ويبذل ماله وجاهه لمساعدة المحتاجين، ويحرص على بناء مسجد قبل أن يموت لكنه لا يخرج زكاة ماله، أو لا يجتنب الطرق المحرمة في كسبه من ربًا وغيره، فهذا وأمثاله حافظوا على أنواع من النوافل؛ لكنهم أهملوا الفرائض فخرجوا عن ولاية الله تعالى.

كما يبين الحديث ضلال المُبْتَدِعَة، الذين شرعوا لهم عبادات لم تفرض، وأهملوا العبادات المفروضة؛ فما تَعَبَّدَ مُتَعَبِّدٌ لله –تعالى– بأفضل ولا أحبَّ إليه مما افترضه على عباده.

وهذه الفرائض: إما أن تكون ظاهرة يفعلها العبدُ؛ كالصلاة والزكاة وغيرهما، أو يتركها؛ كترك الزنا والخمر وسائر المعاصي، وإما أن تكون باطنة؛ كالعلم بالله –تعالى–، والحبِّ له، والتوكل عليه، والخوف منه، وغير ذلك.

فعبادة الله –تعالى– هي الزاد الحقيقي للرحلة إلى الدار الآخرة، يضعف الإنسان في بعض مراحل حياته ... لكن لابد أن ينتبه يومًا قبل أن يوسد في قبره، فيبصر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، ويبصر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم.

إن الحياة قصيرة جد قصيرة، وإنا راحلين عنها اليوم أو غدًا، وسنقف أمام الله –تعالى– فيسألنا عما قدمنا ... سيسألنا عما قدمنا بنعمه التي أنعم علينا، وسيحاسبنا عن كل صغيرة وكبيرة ... فليعد كل منا للسؤال جواباً، وللجواب صواباً.

لنتمسك بهذا الدين، فوالله إن فيه النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، فيه السعادة في الدنيا (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) وفيه السعادة في الآخرة (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النحل: 97].

إذا كثرت الفتن ... بَشَّر النبي –ﷺ– المتمسك بدينه بالجنة ... قال رسول الله –ﷺ: "طوبى لِلْغُرَباءِ، قيل: ومَنِ الغُرَباء يا رسولَ اللهِ؟ قال: ناسٌ صالِحُونَ قَلِيلٌ في ناسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أكثرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ" السلسلة الصحيحة.

إن التمسك بالدين في زمن الفتن له أجر عظيم، قال رسول الله –ﷺ–: " إنَّ مِنْ ورائِكُمْ أيامَ الصبرِ الصبرُ فيهِنَّ كَقَبْضٍ علَى الجمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا أَجْرُ خَمْسِينَ قالوا يا رسولَ اللهِ أجْرُ خمسينَ منهم أَوْ خمسينَ مِنَّا قال خمسينَ مِنْكُمْ "صحيح ابن حبان.

الأعمال الصالحة تقرب إلى الله عزّ وجل، والإنسان يشعر هذا بنفسه إذا قام بعبادة الله على الوجه الأكمل من الإخلاص والمتابعة وحضور القلب أحس بأنه قَرُبَ من الله عزّ وجل. وهذا لا يدركه إلا الموفقون وشعور العبد بقربه من الله لا شك أنه سيؤثر في سيره ومنهجه.

((فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِيْ بِهَا))؛ أي: يجعل الله سلطان حبه غالبًا عليه، حتى لا يرى ولا يسمع ولا يفعل إلا ما يحبه الله؛ عونًا له على حماية هذه الجوارح عما لا يرضاه.

إذا أحبك شرح صدرك، وآنس وحشتك، وفرّج كربتك، ووهبك من الخير ما لا يخطر لك على بال، وسدد أقوالك وأفعالك فجعلها في طاعته ورضاه.

وهذا يدل على شدة حاجة العبد إلى تسديد الله وتوفيقه، كم نحتاج إلى أن نسدد في أقوالنا وأفعالنا؛ فالمعاصي تكثر فينا، والفتن تحيط بنا من كل جانب، واحتمالُ الوقوع في الإثم أقرب إلينا من شراك نَعْلِنا؛ فكيف يكون إبصارُ الحق، والثباتُ عليه، ومجانبةُ الإثم والحرام إلا بتسديد الله لأسماعنا وأبصارنا وسائر جوارحنا.

يا تُرَى كيف سيكون حال العبد إذا فقد توفيق الله وتسديده؟! وكم سيكون تخبطه في الإثم والفتن إذا تخلى الله عنه؟! بل إن التسديد والتوفيق نحتاجه حتى في أمور دنيانا؛ من بيع وشراءٍ، وذهاب ومجيء، ووظائف وأعمال.

ونحتاج إلى التَّسْدِيد في بُيوتنا وفي تعاملنا مع أهلنا وأولادنا وقراباتنا؛ فَكَمْ مِنْ عَبْدٍ لم يُسدَّدْ يخطئ الاختيار في عمله ووظيفته، ويسيء التصرف في بيته ومع أهله؛ فاستحالت حياته شقاءً، ولو كان مُسَدَّدًا لكان أسعد الناس: "فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِيْ بِهَا ".

ومحبَّةُ اللهِ ومحبَّةُ ما يُحِبُّ الله من أعظم المقامات وأرفعها؛ لذلك علّم الله –تعالى– رسوله –ﷺ– سؤال ذلك، قال–ﷺ–: " أنّي قمتُ منَ اللَّيلِ فتوضَّأتُ فصلَّيتُ ما قُدِّرَ لي فنعَستُ في صلاتي فاستثقلتُ، فإذا أنا بربّي تبارَكَ وتعالى في أحسَنِ صورةٍ –إلى أن قال–: يا محمد: قل اللهم إني وأسألُكَ حبَّكَ وحبَّ من يحبُّكَ، وحبَّ عملٍ يقرّبُ إلى حُبّكَ"؛ صححه البخاري والترمذي، وكان من دعائه –ﷺ–: " اللَّهُمَّ ارزُقني حُبَّكَ، وحُبَّ مَنْ يَنْفَعُني حُبُّهُ عندَك، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَني مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَ مَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ "(أخرجه الترمذي وحسنه).

فمتى امتلأ القلب بعظمة الله –تعالى–، محا ذلك من القلب كلَّ ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه؛ فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره.

وقوله تعالى:(وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))، فمن صلى النوافل مع الفرائض يصير أحب إلى الله، والمحبة من الله إرادة الخير، فإذا أحب الله عبده شغله بذكره وطاعته وحفظه من الشيطان، واستعمل أعضاءه في الطاعة، وحبب إليه سماع القرآن والذكر وكرَّه إليه سماع الغناء وآلات اللهو وصار من الذين قال الله تعالى :(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) [الفرقان:63].

فأولياء الله إذا سمعوا كلاماً فاحشاً أضربوا عنه وقالوا قولاً يسلمون أنفسهم به من الوقوع في الذنب، الولي، حفظ بصره عن المحارم فلا ينظر إلى ما لا يحل له، وصار نظره فكرا واعتبارا، فلا يرى شيئاً من المصنوعات إلا استدل به على خالقه.

وقال علي –رضي الله عنه– (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله تعالى قبله)، ومعنى الاعتبار العبور الفكر في المخلوقات إلى قدرة الخالق، فيسبح عند ذلك ويقدس ويعظم وتصير حركاته باليدين والرجلين كلها لله تعالى ولا يمشي فيما لا يعنيه ولا يفعل بيده شيئاً عبثاً بل تكون حركاته وسكناته لله تعالى، فيثاب على ذلك في حركاته وسكناته وفي سائر أفعاله. وحينها يكون ذلك المؤمن ملهماً في كل أعماله ، موفقاً في كل أحواله ، فلا تنقاد جوارحه إلا إلى طاعة ، ولا

ينساب إلى سمعه سوى كلمات الذكر ، ولا يقع ناظره إلا على خير ، ولا تقوده قدماه إلا إلى ما يحبه الله ، وهذا هو المعني بقوله -ﷺ-: (فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ)، وجدير بعبد وصل إلى هذه الدرجة أن يجيب الله دعاءه، ويحقق سؤله، ويحميه من كل ما يضره ، وينصره على عدوه .

((وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لأُعطِيَنَّهُ))؛ أي: طلب مني شيئًا من أمور الدنيا والآخرة لأُجيبن دعوته.

((وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِيْ لأُعِيْذَنَّهُ))؛ أي: طلب مني أن أعيذه مما يخاف لأُعيذنه ولأُجيرنه.

قال ابن عثيمين: "وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي" أي طلب مني أن أعيذه فأكون ملجأ له "لأعِيذَنَّهُ " فذكر السؤال الذي به حصول المطلوب، والاستعاذة التي بها النجاة من المرهوب، وأخبر أنه سبحانه وتعالى يعطي هذا المتقرب إليه بالنوافل ما سأل، ويعيذه مما استعاذ.

فيا لها من منزلة عظيمة حينما يسدّد الله العبد ويوفقه لطاعته حتى لا تعمل جوارحه إلا ما يرضي الله -تعالى-، وتباعدُ كلّ البعد عما لا يرضيه، هذه والله هي السعادة في الدنيا والآخرة، ومن كان كذلك كان جديرًا أن يُعْطِيَهُ الله سؤله، ويعيذه إذا استعاذه، وينصره إذا استنصره، ويجيبه إذا دعاه، كيف وقد قال: "وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" فمع تسديد الله وتوفيقِه لهذا العبد الصالح يجعله مجاب الدعوة؛ لكرامته عليه -عز وجل-.

عن أنس-رضي الله عنه-عن النبي-ﷺ-قال: "كم من ضعيف متضعّف ذي طِمْرَيْنِ لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ، منهم البراء ابن مالك".

⇦ إذا بلغ العبد هذه المنزلة – منزلة الولاية لله – فإن الله يكرمه بأن يجعله مجاب الدعوة ، فلا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، ولا يستعيذ به من شيء إلا أعاذه الله منه ، وذلك لكرامته على الله تعالى، وقد عرف كثير من الصحابة بإجابة الدعاء، كالبراء بن مالك ، والبراء بن عازب ، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، والقصة المشهورة أن شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إلى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، فأرسل يتحقق مما قالوا، فَسَأَلَ عنْه أَهْلَ الكُوفَةِ ولَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إلَّا سَأَلَ عنْه، ويُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له أُسَامَةُ بنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قالَ: أَمَّا إذْ نَشَدْتَنَا فإنَّ سَعْدًا كانَ لا يَسِيرُ بالسَّرِيَّةِ، ولَا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ، ولَا يَعْدِلُ في القَضِيَّةِ، قالَ سَعْدٌ: أَما واللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ عَبْدُكَ هذا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وسُمْعَةً، فأَطِلْ عُمْرَهُ، وأَطِلْ فَقْرَهُ، وعَرِّضْهُ بالفِتَنِ، وكانَ بَعْدُ إذَا سُئِلَ يقولُ: شيخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قالَ عبدُ المَلِكِ: فأنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ علَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وإنَّه لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي في الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ. صحيح البخاري

وكذلك الصحابي المبشر بالجنة سعيد بن زيد – رضي الله عنه – مجاب الدعوة، فعنْ عُرْوَةَ بن الزُّبيْر أَنَّ سعِيدَ بنَ زَيْدٍ، خَاصَمتْهُ أَرْوَى بِنْتُ أَوْسٍ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَم، وَادَّعَتْ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا

مِنْ أرْضِهَا، فَقَالَ سَعِيدٌ: أنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أرْضِها شَيْئًا بعْدَ الَّذِي سمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ، قَالَ: مَاذا سمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ: مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إِلَى سبْعِ أرضينَ فَقَالَ لَهُ مرْوَانٌ: لا أسْأَلُكَ بَيِّنَةً بعْد هَذَا، فَقَال سعيدٌ: اللَّهُمَّ إنْ كانَتْ كاذِبةً، فَأَعْمِ بصرهَا، وَاقْتُلْهَا في أرْضِهَا، قَالَ: فَمَا ماتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، وبيْنَما هِي تمْشي في أرْضِهَا إذ وَقَعَتْ في حُفْرةٍ فَمَاتتْ. متفقٌ عَلَيْهِ.

كرامة لأبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى –وهو من سادة التابعين أيضاً– قالت له زوجته مرة: "ليس عندنا دقيق، فقال لها: هل عندكِ شيء؟ قالت: ليس عندي إلا درهم بعثُ به غَزْلاً، قال: أعطِنيه وهاتي الجِراب، فدخل السوق، فأتاه سائل، وألحّ عليه في السؤال، فأعطاه الدرهم، وعاد إلى بيته وقد ملأ الجرابَ نشارة خشب مع تراب، وأتى وقلبه مرعوبٌ من زوجته، وضع الجراب في البيت ومضى، فلما ذهب فتحتْه، فإذا به دقيقٌ أبيض، فعجنت الدقيق وخبزت، وجاء أبو مسلم الخولاني إلى بيته ليلاً، فقدّمتْ له الخبز، فقال لها: من أين لنا هذا؟ فقالت: من الدقيق الذي اشتريتَه اليوم، فأكل أبو مسلم الخولاني من الخبز الذي أصله نشارة خشب وتراب، وبكى. (سير أعلام النبلاء).

سعيد بن جبير يمسك به جنديان من جند الحجاج وبينما هم في الطريق إذ تنزل الأمطار وتلجئهم إلى صومعة راهب فيرفض سعيد أن يدخلها رفضا قاطعا فيتركانه في الأسفل ويصعدان فإذا بأسد يقترب من سعيد فيصرخون به من الأعلى أن اهرب فلا يحرّك سعيد ساكنا بل يظل في عالم من الذكر دافئ فيقترب الأسد أكثر ثم يصل إلى سعيد وكأنّه يهمس له همسا ثم ينصرف والجنود ينظرون بخوف والراهب ينظر بعين أخرى ويقول: هذا وليّ من أولياء الله.

هناك قصة أوردها الإمام ابن السُّبكي في كتابه (طبقات الشافعية)، وهي التي سمّاها (كرامة المحاميد) يقول: "كان ثلاثةٌ من العلماء في رحلة، وهم: محمد بن جرير الطبري وهو من الأعلام، ومحمد بن خُزيمة وهو من المُحَدِّثين، ومحمد بن نصر المِرْوَزيّ وهو من الفقهاء، كانوا في رحلة فأرمَلوا –جاعوا–، ولم يبقى عندهم ما يَقوتهم وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلةً في منزلٍ كانوا يأتون إليه، فاتّفق رأيُهم على أن يَسْتَهِموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن خزيمة، فقال لأصحابه: "أمهلوني حتى أتوضّأ وأُصَلِّيَ صلاةَ الاستخارة". فذهب يتوضّأ ودخل يُصلّي، فإذا هم بالشموع ورجلٍ من قِبَلِ الوالي يطرقون عليهم الباب، ففتحوا الباب، فقال الرجل: "أيكم محمد بن نصر المِروزي؟"، فقال: أنا، فأعطاه صُرّةً فيها خمسون ديناراً، ثم قال: "أيكم محمد بن جرير؟" قال: "أنا"، فأعطاه صُرّةً مثلَ أخيه، ثم قال: "أيكم محمد بن خزيمة؟" قال: "أنا"، فأعطاه صُرّةً مثلَ أخَويه، ثم قال لهم: "إن الأمير كان قائلاً بالمساء –نائماً نومَ القيلولة–، فرأى في المنام من يقول له: "إن المحاميدَ قد

طَوَوا كَشْحَهُم –بطونهم جِياعا–"، فأَنْفَذَ إليكم هذه الصُّرَر، وأقسمَ عليكم إذا نَفِدَتْ فابعثوا إليه أحدَكم".

«وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»، يا له من كرم رباني الذي يمنحه سبحانه وتعالى لأوليائه، وخاصةً أنه يُعطيهم درجةً عظيمة، ألا وهي: إجابة الدعاء.

وقد يدعو الولي فلا يستجاب له، لما يعلم الله من أن الخيرة له في غير ما سأله، فيعوضه بما هو خير له في دينه ودنياه، فقد أخرج الإمام أحمد (عَنْ أَبِى سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ –ﷺ– قَالَ «ما مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاَثٍ إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا». قَالُوا إِذاً نُكْثِرُ. قَالَ «اللَّهُ أَكْثَرُ».

وقوله سبحانه في الحديث: " وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ "

الموت تكرهه النفوس، ولعِظم مكانة الولي عند الله فإن الله تبارك وتعالى يُخبر عن نفسه العلية بأنه لا يتردد عن فعل الشيء، وهو الذي لا مُكرِه له سبحانه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولكن لعِظم مكانة هذا الولي يتردد سبحانه ترددًا يليق بجلاله وعظمته عن قبض روح عبده المؤمن، ولكن لابد له من هذا الموت؛ فهي سُنة ماضية، فالموت حق كتبه الله على البشر، والبشر يكرهون الموت لما فيه من الشدة والكرب؛ فيرحم الله أولياءه ويلطف بهم، ويحسن لهم الختام، فسبحان الله ما أعظم شأن أوليائه عنده!

المراجع:

❶شرح حديث: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب: عبدالعال سعد الشليّه.

❷شرح الأربعين النووية: الشيخ ابن عثيمين.

❸من عادى لي وليا: ملتقى الخطباء – الفريق العلمي.

❹من عادى لي وليا: عبد الله اليابس.

❺أولياء الله تجب مولاتهم وتحرم معاداتهم (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا).